الإصلاح الديني وتأثيره في التحولات الاجتماعية*

■■ الشيخ حبيب الخباز**

قضية الإصلاح في المنظور الديني تعتبر أساساً لرقي الحياة الإنسانية، طالما البشرية بحاجة إلى الهدى والاستقامة والتكامل، ولولا ذلك لعاش الإنسان تائهاً ضائعاً.

إن الإصلاح لا يقتصر على بعد واحد بل يشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية، كما هو واضح في القرآن الكريم وسوف نتعرض إلى ذلك فيما بعد، وبالرغم من أن شعار الإصلاح يحظى بهذه الأهمية ويعكس الروح الايجابية للدين وقيمومتة للحياة، نجد أن هناك تيارات مختلفة تعارض هذا المفهوم وتحاول أن تضفي عليه صبغة المثالية والروحانية الخاصة في مقابل الواقعية وبعبارة إن الدين مهيمن على روح الإنسان وبنائه الداخلي وليس له علاقة بالدساتير والأنظمة الواقعية والحياتية.

ومن العجب أن نجد هذه التيارات تحتمي بدار الإسلام وتعيش في كنفها، أي مما يدعون بأنهم مسلمو العقيدة ولكنهم علمانيون. يؤمنون بفصل الدين عن الحياة، وان الناس هم أدرى بقيادة أنفسهم، وكالمستشرقين « وهم من جاءوا من خارج البلاد العربية والإسلامية لدراسة هذه الحضارة وتحت أهداف مختلفة ومن أبرزها هو محاولة التأثير في خلق مفاهيم مغلوطة ومنحرفة عن حقيقة الدين ودوره ».

الإنسان محور تعاليم الدين وقاعدة الإصلاح العام

ونجد في القرآن أن الإصلاح يكتسب أهمية وعمقا في الحياة هو أن الإنسان هو محور هذا الرؤية وتفاعلاتها وان كل ظواهر التغيير في الحياة هو نتيجة أو انعكاس لحقيقة الإنسان وواقعه، أي بما يتمتع به من صلاح أو فساد، يقول تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا

* دراسة مقدّمة لمؤتمر القرآن الكريم المقام في شرق المملكة العربية السعودية بمدينة سيهات، تحت عنوان: « التحولات الاجتماعية.. نظرة قرآنية » المنعقد في تاريخ ١٧ - ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ.

** عالم دين وكاتب - السعودية.

وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾[٢]. إن الرؤية الدينية تستمد حقيقتها وصوابيتها من عمق الإنسان وحقيقته، ولا تكتفي بالظواهر ومعالجة الواقع بالواقع. وهذا هو الفرق بين الإصلاح الديني وغيره للإنسان والحياة. حيث نجد أن الفكر المادي والبعيد من القيم إنما يعالج مشاكل الإنسان المختلفة من واقع أخطائه ثم يحاول أن يتخطى الواقع لما هو أسوأ منه أو يلبسه ثوبا جديدا، وهكذا نجد أن المشاكل الإنسانية والاجتماعية في أغلب شعوب العالم هي نتيجة تكرار الخطأ و التجربة أو الهروب منها دون الوقوف عند أسبابها الجذرية، فنجد أن الرأسمالية كمذهب اقتصادي للمادية الغربية تبلور نتيجة الهروب من واقع الاشتراكية الشيوعية، وأن القومية العربية هي تمرد على الملكية والقطرية، إن هذا التخبط هو نتيجة للتجاوزات للفكر الديني القويم ورؤيته.

الإصلاح الشمولي في القرآن

ومن الدعاوى العجيبة هو اتهام الدين بأنه عقبة في طريق التقدم والإصلاح العام، بالرغم من اهتمامه بإصلاح الإنسان، فماذا نطلق على اهتمام الدين ومن خلال القرآن بكل الشؤون الحياتية والتدخل فيها وإعطائها من الأهمية بحيث نجد من ابرز مهام دور كل رسول هو معالجة جانب من الحياة يعكس ضرورته في واقع المجتمع، فالقرآن يعكس اهتمامات مختلفة من قبل الرسل والأنبياء إلى أقوامهم مع اتفاقهم على المبادئ العامة والثابتة، فهناك الاهتمام السياسي وهناك الاهتمام الاقتصادي وهناك الاهتمام الأخلاقي والإداري. فقد اتسمت قصة نبي الله موسى ع مع فرعون في معالجة الجانب الأول أي المشكلة السياسية حيث إن المشكلة الطاغية هو سيطرة النظام الحاكم بالقمع والإرهاب وتكريس الخضوع والعبودية في حياة الناس. يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[٣]. وكانت المهمة الأساسية لموسى (عليه السلام) هو تحرير هذا الشعب حيث قال: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴾[٤]، بينما نجد قبل ذلك أن نبي الله إبراهيم وكذلك نوح تكرست دعوتهما في معالجة العقائد الفاسدة من الشرك والإلحاد، التي تمثلت في الأصنام وعبادة الكواكب. أما قصة نبي الله شعيب (عليه السلام) فقد كانت المشكلة الاقتصادية متفاقمة مما حدا بشعيب بتذكير القوم وتحذيرهم من مغبة التلاعب والاستغلال فقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٥]، وفي قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) تأكيد على أهلية الدين واستحقاقه في التصدي للمسؤولية في تطبيق القيم التي تعكس نزاهة هذا الدور وتأثيره في واقع الناس ومصالحهم بتبنيه نظام الإدارة حيث قال ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[٦]. بينما نجد من اكبر المشاكل للأنظمة السياسية اليوم هو الفساد الإداري بسبب غياب الرقابة والوازع الديني. ومحصلة ذلك يدعونا للتساؤل عن غياب هذا الدور وتأثيره في إيجاد التحولات الاجتماعية منذ قرون عديدة.

إن حال المجتمعات العربية والإسلامية يكرس الشعور بالبحث عن أنظمة ورؤى خارج دائرة الدين والتوغل في مفاهيم الحضارات المشهود لها اليوم بالتقدم والتطور والازدهار، وهي الحضارات المادية بتبنيها للقيم التي تتفق مع التحولات الاجتماعية مثل الديمقراطية والعولمة والسوق المشتركة وقيم السلام ومحاربة الإرهاب. وإذا كان من الضروري هنا وللإجابة عن التساؤلات هو التأكيد على النموذج الديني وبالتحديد في عصر الرسول ﷺ الذي قدم للعالم الصورة المشرقة لمهمة الدين وتكاملية الرؤية من خلال قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة و التي حققت انتصارا على كل المستويات الحياتية وعلى المستوى العالمي في ذلك الوقت.

لكن من المهم البحث عن أسباب هذا التراجع وانحسار هذا الدور والى وقت قريب من عصرنا هذا، والبحث عن العقبات العامة أولا أمام الدعوات الإصلاحية الدينية في الحياة البشرية والتي أشار إليها القرآن:

أولاً: العادات والتقاليد:

إن الفكر الديني الصحيح يعكس القيم الحقة و التطلعات الخيرة، التي تساهم في رفع مستوى الإنسان الفكري والسلوكي، وتقدم للناس الرؤية الحضارية التي تقودهم نحو الآفاق الواسعة والتحولات الايجابية على صعيد الفرد أو المجتمعات، فهو فكر تجديدي ومتقدم بمعنى عدم قبوله الجمود والفراغ والانحراف، لذلك نجد أن أساس هذا الفكر قائم على أساس العقلانية والهداية، « أي وجود التفاعل بين دور الإنسان والدين »، وتركيز دعوة الدين على إثارة العقل فلأنه يقود الإنسان لتبني الفكر الصائب والأفق الرحب.

فالعادات والتقاليد غالبا ما تكون عقبة لأنها تحجب دور العقل في التفاعل وقبول دعوة الحق وليس من الضرورة أن تكون هذه العادات سيئة، بل إن البقاء عليها دون رسم حدود لها بما يكفل للإنسان التقدم وقبول التغيير والتحول له تأثير سلبي أيضا.

وأشار القرآن إلى التأثير السلبي للعادات والتقاليد السيئة في منع وصول أمواج التغيير والهداية يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾[٧].

إن فكرة القبول بالواقع والتسليم للقيم الحياتية مهما كانت سيئة يرفضها العقل و المنطق والدين.

ثانياً: عصيان القيادات الرسالية:

إننا نجد في القرآن ركائز لكل الرسالات السماوية التي تمثل الدعوة للإصلاح والتغيير على ثلاثة محاور رئيسية وهي:

١ - الدعوة إلى عبادة الله وحده.

٢ - الالتزام بمنهج الحق.

٣ - طاعة القيادة الشرعية والربانية.

يقول تعالى: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[٨]، ولقد تكررت هذه الآية على لسان مختلف الرسل وذلك في سورة الشعراء إن عصيان القيادة الدينية والمؤهلة للزعامة كان من أهم العقبات في إيجاد التحولات والتطلعات الايجابية على مر التاريخ بالرغم من الجهود الجبارة التي قام بها الرسل والأنبياء من اجل مجتمعاتهم إلا أن عصيان القيادة وعدم التفاعل مع أطروحاتهم سبب الهلاك لتلك المجتمعات والأمم. وعلى سبيل المثال وليس الاطراد و الإسهاب في هذه الحقيقة فإن نبي الله نوح عليه السلام دعا قومه مئات السنوات ولكن لم يحدث ذلك التأثير فهو يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا﴾[٩]، ونجد في قصة بني إسرائيل مواقف مخزية في التمرد والعصيان للأنبياء الذين جاءوا من اجل خلاصهم، ومن ابرز مشاهد هذا العصيان هو عبادتهم للعجل في غياب موسى عليه السلام. وتاريخ الأمة الإسلامية حافل بالنكسات خصوصاً بعد عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان عصيان القيادة وأوامرها التي تمثلت في التوجيهات النبوية للالتفاف حول القيادة الرسالية وأئمة الهدى، فكان عصيان هذه الأوامر خطيراً في مسيرة الأمة وتجاذباتها.

لقد ترسخت أصول هذا التمرد في عهد الإمام علي عليه السلام حتى قال « لقد أفسدتم أمري بالعصيان » . إن الانحراف عن المنهج الواضح للدين يتمثل في أحد ركائزه في التمرد على القيادات الشرعية ويسبب إقصاء الدين عن مسرح الحياة، وترسيخ دعائم الأنظمة السياسية التي عملت على استغلال الدين وتهميشه ولقد عانت الأمة في أكثر تاريخها والى اليوم نتائج هذا المنحى وانعكاساته على واقع الحياة.

الصحوة الإسلامية يقظة في ضمير الأمة:

وحينما التفت الجماهير حول قياداتها الشرعية والدينية تحقق الإنجاز العظيم والتحول المشهود كما حصل ذلك في إيران الإسلامية، وأقول مشهود لما أحدثته من تحولات اجتماعية ليس فقط على مستوى الشعب الإيراني بل في العالم بأسره، ويمكن بحق أن نؤرخ لحقبة جديدة في العالم مع انتصار الثورة.

ثالثاً: إتباع الأهواء والشهوات وحياة الدعة والميوعة:

يقول تعالى:﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[١٠]، فالقرآن يحدثنا عن تلك الأمة - بني إسرائيل- حيث يقتلون قسما من الأنبياء ويكذبون دعوة طائفة أخرى، والسبب بأنهم لا يريدون الالتزام بمنهج السماء.

إن الدين يهدف إلى سمو الحياة البشرية وارتقائها عن بقية المخلوقات من خلال القيم والتعاليم

التي جاءت بها الرسل، وهكذا نجد الفرق بين مفاهيم الدين وغيره من التشريعات والمفاهيم التي يتبناها البشر. فحينما نبحث عن الفرق بين الحرية الدينية والحرية المادية الغربية اليوم (باسم الديمقراطية) نجد أن الدين يلبي طموحات الناس ويمنحهم الحرية ولكن بشرط ليس على حساب المبادئ والأهداف الإنسانية الكريمة، بينما الديمقراطية تهدف إلى إطلاق العنان للإنسان أمام أهوائه وشهواته ضمن قوانين تكفل له ذلك وتكرس له الشرعية. وهذا ما يميز تلك الحياة الغربية عن غيرها، فنجد بالرغم مما تتمتع به من أساليب حضارية براقة وقوانين في حفظ حقوق الإنسان وحرية المعتقدات وبراءة الاختراع وفي كل جوانب الحياة والذي يعكس بحق جانب مهم من أهداف الدين وتشريعاته، لكن من جانب آخر تمارس في حق الإنسان أسوأ الطرق والأساليب من خلال القضاء على كرامته بتوجيهه إلى حياة الدعة والميوعة واتباع رغباته الحيوانية بدون قيود وشروط، إنها حياة أشبه بحياة الأنعام لأنها تفتقد إلى الأهداف والغايات لنبيلة والأسس الحياتية القويمة: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[١١]، فالحياة الدنيا بالنسبة لهم هدف وغاية، فلا عجب أن نجد تلك التطلعات الدنيئة والسياسات التي تنطلق من هذه الفلسفة تحاول أن تستغل الشعوب وتمتص خيراتها بكل الأساليب واستخدام القوة هنا وهناك من اجل تأمين هذه الحياة وتحقيق متطلباتها.

إن الثقافة الغربية تعكس قيم التحلل والانحطاط وحياة الميوعة ونشر الفساد وهي من اكبر الشواهد وابرز سمات هذه الحضارة إنها جاهلية القرن العشرين كما وصفها الكاتب المصري محمد قطب وقال « ليس الجاهلية في مقابل العلم دائما فلم توصف الجاهلية الأولى بهذا الوصف لأنها تفتقد إلى العلم ولكن لأنها تفتقد إلى أبسط القيم الخلاقة والكرامة الإنسانية، وكذلك اليوم فان الحضارة الغربية تركز على انحطاط الإنسان من خلال سلب كرامته »[١٢].

وللأسف لقد تأثرت بلاد الإسلام بهذه الثقافات وبدأت تنحو بهذا الاتجاه وهو التركيز على حياة الميوعة والتحلل والتطلع الى حياة شبيهة بتلك الحياة.

من هنا نجد أن رفض الدعوة للحكم الإسلامي و تطبيق الشريعة سواء من قبل القوى أو من قبل الأنظمة الاستبدادية تكمن في فلسفة الإسلام للحياة، وقيادته للبشر نحو القيم والمثل المبادئ.

فعلى مر التاريخ كان الإسلام مستهدف من قبل الأشرار وأصحاب الأهواء والمطامع والنفوس الدنيئة، و تحت مبررات وخطط تستهدف إقصائه من الحياة وتفريغه من المحتوى، كما أنه يمثل عقبة في تمرير سياسات الطامعين.

ولا غرابة كذلك أن نجد أعلام الدين من العلماء والمفكرين والقيادات هنا وهناك محاربون ومهددون وان نسمع عن محاولات اغتيالهم.

ومن الأمثلة في التاريخ الإسلامي ما تعرض له الإمام علي عليه السلام من الإقصاء قبل تسلمه زمام الحكم، مع العلم أنه موصى ومنصوص عليه كخليفة، وكذلك حينما تسلم الخلافة وأقام النظام. انه يكمن في نزاهته وتطبيقه للدين وأهدافه، فالإمام علي ع حينما جاء للحكم أقام حكم الله

بتطبيقه مبدأ العدالة والمساواة وألغى كل الامتيازات و المحسوبيات وفتح المجال للتعبير عن الرأي بتكريسه مبدأ الحرية وتعامله مع الخوارج أكبر شاهد على ذلك. فالإمام علي عليه السلام كان خشناً في ذات الله كما قال الرسول في حقه ولذلك فانه تعرض لكل الفتن وواجه مختلف التيارات التي وقفت للنيل من شخصه حتى وصفوه بالكفر تارة وبالخروج عن سيرة الشيخين تارة أخرى.

من هنا نجد القرآن يؤكد على الثبات والالتزام، يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فيهنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[١٣]، ويقول: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[١٤]، فإتباع الهوى هو أساس كل انحراف عن الجادة وذلك بسبب الغفلة والإعراض عن ذكر الله ونسيان يوم الحساب.

ولا عجب حين يتحكم الهوى في حياة الإنسان أو في مصير الشعوب والمجتمعات أن نجد تلك المسوغات لحياة الترف واللهو واللعب ونوادي الخمور والدعارة تنتشر في تلك الدول التي تدعي الحضارة وكذلك في الدول العربية والإسلامية التي فقدت ثوابتها الدينية. فليس كل من رفع شعار الإسلام كأساس للحكم ودستوراً للتشريع وملأ الشوارع والطرق بالشعارات الدينية وبأسماء أعلام التاريخ يكون قد حقق حكم الله، ومن قبل لقد سمي أغلب حكام الدولة العباسية بأسماء أضيفت لأسم الجلالة مثل المستعين بالله والمنتصر بالله والواثق بالله.. لكنهم كانوا أشد بغضا للدين وفتكا بأولياء الله. يقول الإمام علي عليه السلام وهو يصف الحاكم الذي يحكم بحكم الله ويسعى لتحقيق أهدافه:

« إنما يقيم حكم الله سبحانه من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع ».

والمصانعة تعني الاستسلام و التساهل، والإمام علي لم يتساهل في تطبيق العدالة حتى مع الشخصيات التي تملك القدرة على التمرد وتأليب الناس كمعاوية كما انه رد الأموال التي فرقت هنا وهناك من بيت مال المسلمين. والمضارعة تعني المشابهة بأن يتأثر الإنسان من المحيط ويحمل أمراض المجتمع السلبية ويبتلى بالضعف والمصلح والقائد لا بد أن يكون قدوة.

كما يقول الشاعر:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو عليل

ولا يتبع المطامع، يقول الإمام علي عليه السلام « الطمع رق مؤبد »[١٥]. ويقول الإمام عليه السلام: « كم من عقل أسير تحت إبريق المطامع »، ويقول عن أهداف الثورة و الإصلاح وقيام النظام الإسلامي « نرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك »[١٦].

رابعاً: النفاق:

ومن اشتقاقاته النفق في الأرض ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا في

الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾[١٧]، ويشتركان في الاختفاء، فالمنافق يخفي كفره ويظهر إيمانه من أجل تحقيق مآربه وغاياته. لقد كان المنافقون اشد خطرا على الإسلام من غيرهم من الكفار والمشركين واليهود في كل زمان ومكان، وان المتتبع للقرآن يجد الحديث عن أهل النفاق ودورهم في خراب الدين واستهدافه ومحاولة إقصائه وفصل الأمة وتثبيطها عن الالتزام به، ويمكن تلخيص أساليبهم من خلال ما يلي:

١ - تشويه صورة الإسلام.
٢ - تثبيط النفوس عن الجهاد والدفاع عن الإسلام.
٣ - استغلال المناصب والحكم والاستبداد.
٤ - الحيلولة دون تطبيق الشرع والالتزام بالفرائض.
٥ - الكيد والغدر والخيانة لأهل الأيمان.
٦ - التعاون مع أعداء الدين من الكفار والمشركين.

فالمنافقون وان كانوا يعيشون مع الناس ويظهرون المودة وشعارات الإخوة إلا أن قلوبهم وعقائدهم وأهدافهم وتطلعاتهم فاسدة وخبيثة، فهم خطر على الأمة ومصالحها في أي خندق تمترسوا وأي مكان وجدوا فهم بلاء ما بعده بلاء، والقرآن حينما يتحدث في كثير من آياته عن أساليبهم فهو يحذرنا من شرهم ويقول تعالى:

- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾.
- ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.
- ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾.
- ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ ﴾.
- ﴿ اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.
- ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.
- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ ﴾.
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾.
- ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾.

- ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

ومن الملاحظ في اغلب الآيات التي تتحدث عن المنافقين يشير إليها القرآن بقوله: (ومن الناس) إشارة إلى دورهم الخبيث في التظاهر بالصلاح وقربهم من الناس.

والأمة الإسلامية اليوم ابتليت بمثل هؤلاء خصوصا أولئك الذين تشبعوا بثقافة الغرب وتربوا وترعرعوا في أجوائها وشربوا من ثدي مبادئها حتى إذا ما رجعوا إلى أوطانهم قاموا بما يجب أن يقوموا به من تلميع صورة الغرب وتقديمها كنموذج وتكريس التبعية لهم، وانبهروا بإنجازاتها وتأثروا بعاداتها وتقاليدها فهم اليوم يمثلون راس النفاق من خلال تربعهم وسيطرتهم على مقدرات الأمة ومصيرها. فهم مع ذلك يرفعون شعار الدين والإسلام ويرسمون الأحلام لشعوبهم ولكنهم ابعد ما يكون عن تطبيق ذلك وتحقيق الأهداف. فلننظر إلى ما حققته هذه الأنظمة والحكومات وكيف تسخر خيرات الشعوب التي تحكمها وما هي المناهج الإسلامية الحقة التي تنتهجها، وكيف أصبح المسلمون مع كثرتهم وتعدادهم امة متخلفة ومتفرقة بعد أن كانت تجمعهم كلمة التوحيد (لا اله إلا الله) ووحدة الكلمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، فلا يجمعهم اليوم سوى المصير الواحد وهو الضعف والاختلافات و التخلف كل ذلك بسبب الذين يحسبون أنفسهم بأنهم يملكون مفاتيح الخلاص للأمة والمقدرة على تغيير أوضاعها إلى الأفضل وأنهم الأحرص على خيرات الأمة....

وخلاصة الكلام بعد ذكر العقبات، إن التحولات الدينية في التاريخ وفي وقتنا الحاضر وربما في المستقبل هي بطيئة ونادرة (للأسباب التي ذكرت وللأسباب التي سوف نذكرها في الفصل القادم) ولكنها هي الأجدر والأقوى في التأثير على الإنسان والشعوب مهما كانت هناك من عقبات وتراكم من ناحية الزمن والثقافات والعادات. فالتحولات الدينية هي رهينة بالتضحيات والجهود ووعي الأمة ومن اجل ذلك نجد أن الانتصار الحقيقي هو ثمرة كل ذلك وتجاوز العقبات والابتلاءات، يقول المرجع المدرسي: « إن الشعوب أحيانا ومن أجل استرداد حقوقها وإرادتها بحاجة أحيانا إلى ما يشبه بالعمليات القيصرية ».

الإخفاقات وسلبيات العمل الإصلاحي

يمكن أن توفر السلبيات فيما يلي:

أولاً: العمل الفردي:

قد يفرض على الإنسان العمل الفردي لأنه لا يجد أحدا يقف معه، وكذا المصلح لا يمكن أن يتوقف عن واجبه وعن مسيرة الإصلاح. فليس من الشروط الحتمية أن يحقق النجاح الكامل في مسيرة الإصلاح يقول الإمام علي عليه السلام: « لا استوحشن من طريق الحق لقلة سالكيه »، إنما الإشكالية أن يختار المصلح هذا الأسلوب والطريقة لتحقيق التأثير

والتحول والتغيير. إن الإخفاقات الإصلاحية في كثير من الحالات هو بسبب إرادة العمل الفردي لعلاج المشاكل المختلفة وقضايا الأمة المعقدة. وإذا كان العمل الفردي قبل قرن أو أكثر يفرضه الواقع الاجتماعي لغياب الوعي الجماهيري وركود الحياة، فانه اليوم مختلف تماما حيث أن أوضاع العالم قد تغيرت والتحديات التي تواجهها الأمة اختلفت وكذلك فان الأمة في صحوة مستمرة مما يتطلب:

١ - نشاط وقدرة غير محدودة.

٢ - أن يتسم العمل بالتنظيم والتركيز والإدارة.

٣ - ومع وجود النخب الإصلاحية يتطلب التنسيق والتعاون وبلورة الرؤى والأفكار للوصول إلى نتائج متقاربة أو متحدة وسديدة.

٤ - وفي ظل المشاكل الاجتماعية المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية يتطلب وجود مؤسسات وقنوات لاستيعاب هذه الضغوط والتحديات التي نواجهها.

٥ - وأمام التطور العالمي والانفتاح وتأثيراته وإيقاعاته السريعة يتطلب القدرة والجهد للخلوص إلى مواقف ونظريات وتحليلات في صالح الحركة وتسخيرها في مصلحة الأمة.

إن المبدأ الإسلامي يعطي للدور الجماعي الأحقية والأفضلية كدعامة في تحقيق الأهداف واستيعاب الظروف. يقول تعالى:﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّه إِنَّ اللّه شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

وإذا كان العمل الفردي اليوم لا يحقق الأهداف المنشودة وفي ظل الظروف الصعبة والمستجدات الاجتماعية والتحديات فهو يعكس أيضا روحاً سلبية على مستوى التحولات الاجتماعية.

ثانياً: الدور المحدود:

ومن الإخفاقات الإصلاحية هو الاكتفاء بالعمل المحدود في التأثير، والتي لا تتجاوز المعرفة السطحية بمشاكل الناس وهموم الأمة، ومما يؤخذ في وقتنا الحاضر هو وجود كثرة المصلحين لكن دون إحداث التغييرات المأمولة، وإذا كانت هناك من تأثيرات ملموسة فهي لا تعكس ولا تتناسب مع هذا الوجود، من هنا تأتي ضرورة المؤهلات والكفاءة والطموح والتي تعلب دورا مهما في شخصية الداعية والمصلح وقدرته في تبني المشاريع والمؤسسات والأدوار الرئيسية التي يحتاجها الناس، ولاشك إن الإحجام عن القيام بتلك المهام المطلوبة والأدوار لها أسبابها الشخصية والاجتماعية المختلفة. كما أن القدرة على تجاوز كل هذه العقبات والصمود دليل على الأهلية، وقد أشار القرآن إلى هذا البعد بشكل دقيق يعبر عن كل المعاني في شخصية المبلغ والمصلح يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللّه وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا ﴾.

ثالثا: ثقافة التكفير والتفكير السطحي:

ومما يؤخذ على الفكر الدعوي والإصلاحي في بعض اتجاهاته هو ذلك التناقض بين تبني هذا الهدف وتلك الأفكار والمواقف المضادة لبعض التيارات الدينية والتي تزعم إصلاح الأمة وهداية الناس. بينما هي تشهر سلاح التكفير لكل من يحمل فكرا أو عقيدة أو مذهبا مخالفا لها، ولا شك أن هذا التطرف كان له تأثير سلبي وأوجد إرباكا على مستوى الأمة في تحقيق وحدتها. ونفورا عند البعض حيث عكس جانبا من أسباب التخلف و الانحطاط في تاريخ الأمة، بل يرى آخرون عند تقييمهم لهذه التيارات الفكرية المتطرفة أنها أشد خطراً وفتكاً لوحدة الأمة وتفكيكاً لقدراتها وتشويهاً لرؤاها وذلك من خلال استخلاصهم لمواقفهم وأساليبهم التي يتبنونها في كل مكان وفي أي عصر والتي تتلخص في:

١ - ثقافتهم السطحية للدين وتعاليمه.

٢ - تسببهم في تمزيق وحدة الأمة من خلال التمييز بينها الى مذاهب وعقائد وجماعات توصم بعضها بالكفر والضلال، ولا يمكن للأمة أن تتوحد من خلال هذا التشرذم والافتراق.

٣ - خلق الفتن والصراعات والمشاكل الجانبية بين المسلمين.

٤ - إيجاد بؤر للصراعات والحروب بين الأمة وأعدائها في العالم من خلال تأويلاتهم للدين وللإحداث وتحليلهم للسياسات.

٥ - بروز الفكر المتطرف على مسرح الحياة الاجتماعية والعالمية مما يعكس صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين.

ولقد عانت الأمة عبر تاريخها من ألوان هذا الفكر المتحجر والسطحي في فهم الدين و مبادئه ومنطلقاته الحضارية، ومن نماذج هذا الفكر في التاريخ هم الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي عليه السلام في خلافته وكفروه وحاربوه، فالخوارج في التاريخ كانوا فتنة وهي أشد من القتل للكفار، « ولقد قال الإمام علي عليه السلام حين حاربهم وقتل منهم الكثير « أنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجرأ عيها احد غيري بعد أن ماج غيبها واشتد كلبها » وأشار الإمام بأنه لم يتجرأ احد أن يواجههم غيره والسبب هو أنهم يرفعون شعار الإسلام والحرص عليه ويتظاهرون بالزهد والخشوع والتدين »[١٨].

وما زال هذا الفكر بألوان مختلفة ساري المفعول إلى وقتنا الحاضر حيث تعاني الأمة من هذا التطرف لبعض التيارات التي ترفع شعار الإصلاح والدفاع عن مصالح الأمة، لكنها معزولة فكرياً عنها لا لأنها تعترف إلا بنفسها ولا تخضع لأي حجة أو رأي فهي تعتقد بالحق المطلق لها.

إن من أهداف الدين الأساسية الدعوة إلى وحدة الأمة و تكريس مبادئ السلام والاحترام والإخوة الإيمانية، التواصل والحوار بين المسلمين وغيرهم، لان ذلك يوفر الأرضية الخصبة في نشر القيم الصحيحة وأساليب الاقتناع والتأثير وإيجاد التحولات الايجابية. إن التطرف مرفوض من الناحية الدينية والعقلية لأنه يفتقد إلى عنصر المواجهة مع الآخرين، وإلقاء الحجة واحترام الرأي

الآخر، مما يبرر للآخرين باتهامه بالباطل والضعف والانحراف، لأنه لا يتفق مع المبادئ الحضارية والأخلاقية وهي من أهم سمات الفكر الديني والإسلامي. ولقد أكد القرآن على هذه السمات في قضية الدعوة و التبليغ والإصلاح، فقد أمر الله سبحانه رسوله محمد ﷺ بالالتزام بها وهو قدوة المصلحين والهادين حيث قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّه لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّه إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾، وقال أيضا: ﴿ ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾، وقال: ﴿ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

رابعاً: أسلوب المواجهة المباشرة مع النظام السياسي:

ومن الإخفاقات التي واجهت حركة الإصلاح الدينية هو تبنيها ذلك الأسلوب في مواجهة النظام السياسي دون الرجوع إلى إرادة الأمة، وكان المطلوب هو إعطاء الأمة دورها في تقرير مصيرها وذلك من خلال نشر الوعي و الثقافة، وتحميل الأمة المسؤولية اتجاه أوضاعها، أي لابد من استفادة الحركة لكل الفرص والخيارات المتاحة. وقد أكد القرآن على قضية الحوار كأسلوب للتعاطي مع النظام السياسي المنحرف، وقد أمر الله نبيه موسى عليه السلام للحوار مع فرعون فقال: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾[١٩]، إن أسلوب المواجهة كان في الغالب ليس في صالح الأهداف الإصلاحية بل تعمل على:

أولاً: إلى هدم كل الإنجازات وتأخير كل الخطوات البناءة.

ثانياً: تكريس قبضة الهيمنة للسلطات الحاكمة وتبرير قمعها وسيطرتها

ثالثاً: إلحاق الضرر بالمصلحين من الملاحقة المستمرة و التشريد و القتل و التصفيات و التنكيل والعقوبات.

رابعاً: تشويه صورة المتصدين واتهامهم بأشد المسميات والمساوئ.

إننا نجد أن أسلوب المواجهة عبر التاريخ مع الأنظمة الفاسدة على نوعين وحالتين:

الأولى: هي تلك الثورات والحركات التي اختارت هذا الطريق ولم تمهد لها قاعدة جماهيرية تستند إليها، واختارت المواجهة المباشرة كحل جذري من اجل التغيير والإصلاح.

ثانياً: هي تلك الحركات والدعوات التي قامت بدورها اتجاه الناس ونشر الوعي وحملت الأمة مسؤوليتها، فلم تلقى استجابة وتفاعل، أو أبت إلا الخضوع والاستسلام، فكان الطريق هو القيام بواجبها التاريخي والمصيري الذي يحتم عليها، ومثال هذا النموذج الثاني هو ثورة الإمام الحسين عليه السلام حيث ثار في وجه النظام الأموي اليزيدي ولكن بعد أن دعي من قبل الجماهير وكتبت له الرسائل و الكتب من اجل حثه للخروج والثورة، فما كان منه عليه السلام وهو الإمام المعصوم والهادي للأمة إلا الاستجابة كما إن الظروف المأساوية لانحراف النظام عجلت في الثورة.

لكن العنصر المهم في ذلك هو في وعي الأمة وإرادتها للتغيير ومن دون ذلك فان النتائج وخيمة والتضحيات جسيمة ولا يمكن تقديرها وتقييمها مهما كانت نزاهة الثائرين وتطلعات المصلحين من الأنبياء و الشهداء الذين يحفظ الله دماءهم وحياتهم الخاصة يقول تعالى: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٢٠]

إن العلاقة بين الثورات و الأنظمة السياسية هي علاقة جدلية في الغالب تعكس بظلالها على صعيد التحولات الاجتماعية، فهما يشكلان محور التأثير في رسم خريطة الحياة ومستقبلها ولذلك يقول الرسول ﷺ: « اثنان إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسدا فسدت أمتي العلماء والحكام » من المهم أن نقف عند مدلول هذا الحديث بعد التسليم به وتواتره عند علماء المسلمين، ونحاول استنتاج آفاقه وان بدا واضحا، فنقول أن الحديث له عدة افتراضات واحتمالات للوصول إلى الغرض المطلوب:

الافتراض الأول: هو صلاح العلماء (المؤسسة الدينية) وصلاح الحكام (السياسية) وذلك حينما تتجسد في شخصية الحاكم بأن يكون عالما وهو قليل في التاريخ والحاضر، ونجد مثالا على ذلك هو في عهده الرسول الأكرم معلم البشرية وهو الحاكم والمصلح، حيث تحقق في عهد الحلم البشري في ظل الحضارة الإسلامية حيث ارتقت الإنسانية إلى سلم التكامل والسمو والسعادة فكان رحمة للعالمين ومفتاحاً للخير والبركة فلم تنعم البشرية في الحياة كما عاشت في ظل قيادته الربانية وقد وصف القرآن مهمته بأدق التعبير حيث قال: ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢١].

والنموذج الآخر هو في عهد الإمام علي عليه السلام الذي رسخ قيم الحق والعدالة والمساواة وهو الذي يقول: « إن في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق ». لكن وجود المغرضين وأصحاب المطامع والأهواء الذين لا يريدون الخير للأمة أضاعوا فرصة وجود هذه القيادة الربانية وحرموا الأمة من ظلها وعطائها.

الافتراض الثاني: فساد المؤسستين الدينية والسياسية، ويمكن أن يتصور ذلك بان تكون المؤسسة الدينية خاضعة بالكامل إلى الجهاز الحاكم الفاسد، وفي التاريخ والحاضر نماذج كثيرة فالحكومات بعد عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام مثال واضح بدء من العهد الأموي ثم العباسي، وقد تكون هاتان الحقبتان بداية لتأسيس تحولات سلبية خطيرة في تاريخ الأمة وانحرافها مما يدل على خطورة هذا المنعطف والمنزلق للعلماء الذين يقودون الناس ويبيعون ضمائرهم ويخونون أمانتهم في سبيل الارتزاق من الحاكم. ولقد ابتليت الأمة من هذه النماذج أي من (علماء السلاطين) فهم يشكلون خطرا اشد من بطش النظام نفسه، ولقد حذر القرآن من مهمة علماء ومفكري الأمة ومن مغبة التورط في القيام بأدوار تفقدهم قيمتهم و مصداقيتهم، يقول الرسول ﷺ محذراً: « إذا رأيتم العلماء على أبواب السلاطين فبئس العلماء وبئس السلاطين، وإذا رأيتم السلاطين على أبواب العلماء فنعم العلماء ونعم السلاطين » فعلماء

السلاطين لا يكتفون بالجلوس والعمل في جهاز الحاكم وتوجيهه بل يصبحون جزءاً من النظام وضحية مؤامراته رغم إرادتهم ووعيهم وعلمهم، وإن مهماتهم خطيرة ومع ذلك يقومون بها لأنهم لا يملكون القدرة على العصيان والرفض واختصاراً لا يملكون الاستقلالية فنجدهم:

١ - يُظْفون الشرعية على النظام.

٢ - يبررون مواقفه وخطواته.

٣ - يمجدون في شخصه وأفعاله.

٤ - يحرفون الدين ويزيفون الحقائق على الناس في سبيل تحقيق رضا الحاكم.

٦ - يصدرون الفتاوى الشرعية في وجه كل من يقف ضد النظام أو يحاول التعرض إليه.

ولا شك أن تأثير هؤلاء على الناس كبير وخطير لكن الشريحة الواعية لا تستجيب إلى هذا الصنف من الوعاظ، لأنهم أبواق ومرتزقة للنظام ويعبرون عن إرادته. ولقد استفادت الحكومات الظالمة من هذا اللون من العلماء في تكريس قوتها وتنفيذ مخططاتها، مما أفقد الأمة صوابها وقدرتها، وعلى سبيل المثال نجد في التاريخ شريح القاضي في الجهاز الأموي الحاكم يفتي ضد الحسين وثورته ويقول بان الحسين خرج عن حده فليقتل بسيف جده. فأصبح الحسين سبط رسول الله وريحانته يقتل بسيف الإسلام وسيف محمد ﷺ وهو القائل ﷺ: « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة » .

ونشير إلى ذلك التحذير القرآني الصريح في مهمة العلماء يقول تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[٢٢]، ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[٢٣]

إن هذا اللعن والتهديد لهذه الفئة من العلماء لم يتأتى لولا خطورة دورهم في مصير الأمة وخيانة الأمانة الكبرى بتحريف الدين. وليس لهم توبة حقيقية لتبرير مواقفهم أمام الجماهير إلا إذا تخلوا عن مهمتهم الخبيثة والشيطانية وكذلك اعترفوا بأخطائهم ثم بينوا الحقيقة وكشفوا الأخطاء.

مما يعني أن دور العلماء هو دور القيادي والطليعي في الأمة وان الجماهير هي رهينة مواقفها وتصديها وان التنازل عن ذلك بالسكوت أو المهادنة يفقدها مكانتها ومبرر دورها، كما هو تحذير للجماهير من إتباع وتقليد هؤلاء أو الاستماع لهم. ففي الحديث: « فمن استمع إلى ناطق فقد عبده فان كان الناطق عن الله فقد عبد الله وان كان الناطق عن الشيطان فقد عبد الشيطان » .

الافتراض الثالث: صلاح أحدهما وفي الغالب أن تكون السلطة السياسية هي من تتآمر وتسعى للفساد وتحقيق المصالح، وأن المؤسسة الدينية دائما في مواجهة هذا الانحراف، ومن أجل تحقيق الأهداف المنشودة وتطلعات الأمة و تحقيق التغيير و التحول الاجتماعي لا بد

من تجاوز تلك الثغرات التي تتسبب في تلك الإخفاقات، فلا بد من أن تسعى في استنهاض إرادة الأمة والجماهير وتعمل على تفعيلها لتكون هي صاحبة القرار والتغيير.

إن التحولات الاجتماعية مهما كانت أسبابها واتجاهاتها هي تعبير عن سنة الحياة، والقرآن يشير إلى سنة الإصلاح الديني والحياتي بأنها رهينة الإرادة الجماعية والشعبية في التحولات الاجتماعية، وليس الإرادة الفردية.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾

وقال أيضا: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ □

الهوامش:

(١) سورة الشمس، آية ٨ ـ ١٠
(٢) سورة النازعات، آية ٤٠
(٣) سورة القصص، آية ٤
(٤) سورة طـه، آية ٤٧
(٥) سورة هود، آية ٨٥
(٦) سورة يوسف، آية ٥٥
(٧) سورة لقمان، آية ٢١
(٨) سورة نوح، آية ٣
(٩) سورة نوح، آية ٦
(١٠) سورة المائدة، آية٧٠
(١١) سورة محمد، آية ١٢
(١٢) قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين، بتصرف بسيط.
(١٣) سورة المؤمنون، آية ٧١
(١٤) سورة ص، آية ٢٦
(١٥) عبده، الشيخ محمد، نهج البلاغة.
(١٦) نقل بتصرف: (الحركات الإسلامية في القرن العشرين) مرتضى مطهري، ترجمة صادق العبادي.
(١٧) سورة الأنعام، آية ٣٥.
(١٨) انظر: دراسة عن الخوارج سياسياً وتاريخياً للعلامة جعفر مرتضى العاملي.
(١٩) سورة طـه، آية ٤٤.
(٢٠) سورة آل عمران، آية ١٦٩.
(٢١) سورة التوبة، آية ١٢٨.
(٢٢) سورة البقرة، آية ١٥٩.
(٢٣) سورة البقرة، ١٦٠.